القسم الثاني

obeikan.com

obeikan.com

من مركزية الجماعة إلى مركزية الفرد

أطفالكم ليسوا لكم – جبران

أفعال البشر شريرة- تولستوي

في البدء كانت الفكرة... الكلمة...
والكلمة تجسدت في صورة بشرية...
ولكي تتجسّد الكلمة في إنسان فهي بحاجة لأنثى ؛ امرأة...
من غير امرأة لم يكن إنسان...
الإنسان مولود المرأة...

هل كان آدم الأول ذكرًا أم أنثى، أم كان كائنًا خنثيًا (مزدوج الجنس) في البدء، ثم انفصل إلى كائنين منفصلين جنسيًا وفيزيائيًا ولكنهما مترابطان نفسيًا وكلٌ منهما لا يستطيع الحياة أو الاستمرار من غير الآخر.

في البدء (الذي سبق ذكره قبل قليل) لم يكن موت... ولذلك كان الإنسان شأنه شأن الكائنات الأخرى المحلقة في الوجود خالدة أبدية... لكن (عقل) الإنسان قاده للانفصال في التفكير بحسب إرادته... بحسب أنا(ه) الخاصة... فكانت اللعنة...

يجد البعض صعوبة في تقبل وقع كلمة (لعنة/خطيئة/عصيان/سقوط)، ولكن تأمل واقع حياة الإنسان وما تقتضيه من شقاء وجهد مضني وعبثية لا طائل منها، تدفعه لتغيير آرائه مع الوقت... وبتعبير أدق ، إن فكر الإنسان ينضج أكثر كلما ازداد في السنوات والتجربة.

وجود الشقاء والمعاناة واجترار العذاب يجعل وجود (الموت) ضرورة وحلمًا يهرب إليه الإنسان للخلاص من الشقاء أو الملل أو العبث...

لكن الموت مخيف ، مرعب ، أزلي ، كوني... معناه التلاشي في التراب أو السديم ، والانقراض بالمعنى العلماني... فالموت الذي يتمناه الإنسان في حالات معينة يبقى مخيفًا ومرعبًا عندما يقترب من الحقيقة أو التنفيذ... والحياة صعبة وشقية وعبثية ولكنها مغرية من جانب آخر.

الخوف من الموت والانقراض النهائي يدفع الإنسان للبحث عن بديل... يقاوم فكرة الانقراض...

البديل هو الولادة الجديدة ، هو استمرار دورة الكائن الحي : ولادة ، نمو ، ازدهار ، ذبول ، موت ، ولادة ، نمو...

فكرة الدوران أو الدورة الحياتية تتجسَّد سنويًا في الفصول الأربعة وانعكاسها في صور النباتات والأعشاب في الطبيعة : الربيع بمثابة الولادة... الصيف النمو... الخريف ذبول... الشتاء موت وسبات... الربيع ولادة ونمو...

وفي التاريخ القديم كانت التقاويم (kalenders) تبتدئ في مارس أو أبريل أو بينهما مترافقة مع بدء (ولادة) دورة الطبيعة...

فمن أجل مواجهة الانقراض وديمومة الحياة ، تهيأ جسد الأنثى للإخصاب والإنجاب...

وهكذا كان... (الإنسان مولود المرأة ، قصير العمر ، ومفعم بالشقاء ، يتفتح كالزهر ، ثم ينتثر ، ويتوارى كالشبح فلا يبقى له أثر).

هل الإخصاب والإنجاب بركة أم لعنة؟ ! !...

•

العطاء أو الفقدان

عنصر الخير يتحقق من خلال العطاء... عندما تعطي شيئًا من ذاتك أو من عندك للخارج، فأنت تفعل خيرًا، أنت تساعد.

فكرة العطاء هي نفسها فكرة الفقدان...
عندما تعطي شيئًا من ذاتك، فأنت تفقده؛ من وجهة نظرك.
عندما تعطي مبلغًا من المال نحو الخارج، فأنت فقدت مبلغًا من المال الذي كان عندك، وما تبقى عندك صار أقل من الذي كان.

الفقدان مفردة تدل على وجع وخسارة وندم، ولذلك تمَّ توليد لفظة أخرى بديلة تمنح راحة نفسية أو تعويضًا نفسيًا واجتماعيًا؛ هي كلمة تضحية، تبرع... فالشخص الذي يضحي بشي من عنده أو يتبرع به للآخرين هو إنسان جيد، يعمل خيرًا.التضحية والتبرع تعني المساعدة وعمل الخير، وهذه مع التطور صارت تعبيرًا عن المحبة الإنسانية أو الالهية... فلولا الحب لا يقدم شخص على التضحية أو التبرع بشي من عندياته من أجل سواه.

هل الولادة مرتبطة بفكرة الفقدان والعطاء والتضحية؟...

إن الجنين هو قطعة من أحشاء المرأة، جزء من دمها ولحمها... يتكون وينمو في رحمها، حتى تنضج صورته ويتكامل كيانه، وعندها يبدأ في الانفصال الجسدي عنها، ولا يبقى بينهما غير (حبل السرة)، الذي يمد الجنين بالغذاء وهو في رحم الأم... وعند الولادة لا يخرج الطفل فقط، وإنما مجموع الكيس الرحمي الذي تكون فيه الجنين ونما... مع خروج الطفل والكيس الرحمي تخسر الأم غير قليل من أحشائها ودمها ووزنها.

– إنني أجد الانثى مسكينة أكثر من الذكر، لأن هكذا شيء (مهول) يجري داخلها ولا تدرك كنهه، لأنها تحتمل وتتقبل حدوث شيء في كيانها ونفسها، وهي لا تفهمه – . دور الذكر في ذلك يبقى هامشيًا وخارجيًا.

إن شخصًا يفقد جزءًا من جسده أو عضوًا من أعضائه يشعر بحالة فراغ نفسي مستديم، يجعله يتذكر على الدوام حالة الفقدان، سواء كانت بسبب حالة مرضية أو حادث عنف خارجي. وفي الغالب يتحقق الفقدان خلال ظرف معين دون تخطيط أو توقع سابق ودون إرادة أو مسؤولية مباشرة من ذات الشخص، إضافة لوجود مبرر موضوعي لحالة الفقدان وتقدير اجتماعي للموضوع.

لكن ظاهرة الولادة عند المرأة مختلفة، فهي فعل إرادي، مخطط، ومقصود، ومشمول بعناية واحتمال وانتظار وتوقع، والانعكاسات النفسية والاجتماعية لفعل الولادة ليست واحدة عند جميع النساء، -كلّ هذا لن يساعد المرأة للجواب على سؤال : لماذا تنجب ؟!... لماذا تلد ؟... لماذا تسمح أين يكون جسدها وعاءً لشيء آخر ؟!... وإذا كان الشقاء والمرض والموت ينتظر مولودها، فلماذا تفعل ذلك ؟!... هل الحمل والإنجاب فعل واعي عقلي أم هو فعل غريزي خارج سيطرة المرأة أو الإنسان عامة ؟!...-

هل تجد المرأة هروبًا من الخطأ بتكراره (وداوني بالتي كانت هي الداءُ) ؟... أم تجد عزاء المرأة في مشاركة الرجل لها في المسؤولية ؟... لكن هذا لا يتعدى الالتزام الأدبي أو الاجتماعي لا غير.

•

انتفاء المبرر الاقتصادي والاجتماعي

يؤكد علماء الأنثروبولجي ان الإنسان البدائي كان يفضل العيش في إطار جماعة لتأمين نفسه ضدّ خطر الحيوانات المفترسة الأقوى منه وأكبر حجمًا... وثمة... كانت هناك حاجة متزايدة لنمو حجم السكان لتأمين الجانب الأمني والمعيشي للجماعة. فالحاجة الأمنية، والحاجة المعيشية في الصيد أو الزراعة، والحاجة السياسية في التنظيم وتقسيم الأعمال ووجود كفاية من البشر للمشاركة في الحرب والغزو، كل هذه عوامل اقتضت دوران عجلة الإنجاب البشري

بأقصى سرعاتها، كما اقتضت تشريع تعدد الزوجات وأشباه الزوجات اللواتي يساهمن في عملية الإنجاب ودعم النمو السكاني للعائلة والقبيلة والدولة...

ولكن تلك الظروف تغيرت اليوم، واختلفت المفاهيم، وانعدمت مبررات تلك الحاجة البشرية، بل صارت الزيادة السكانية تتسبب في كوارث المجاعة والأمراض والحروب الداخلية والخارجية.

إن الحاجة العائلية كانت هي الأساس في تطوير فكرة العائلة والأطفال، ولعوامل أمنية أو اقتصادية واجتماعية... أما اليوم فإن العائلة تتعرض لضربات موجعة جراء تراجع القيم الاجتماعية وانتفاء التكافل العائلي أو الاجتماعي داخل العائلة الصغيرة أو الكبيرة... ومع ازدياد مساهمة الدولة في تسديد حاجات الفرد، فإن هيمنة المعاملات الاقتصادية والقيم الاستهلاكية زادت من معدل التفكك الاجتماعي واللهاث وراء المادة والمتع المادية.

إن المجتمع المعاصر يعاني من أعباء ثلاث جماعات سكانية بحاجة للحماية والمساعدة: (الأطفال والشيوخ والنساء)، وهي أكبر الفئات السكانية عددًا التي تشكِّل المجتمع العالمي.

ثمة تضخم في حجم الفئات العمرية كبيرة السن، تقابلها زيادة في حجم الفئات العمرية صغيرة السن، مقابل زيادة كبيرة في حجم فئة الإناث في مجتمعات اليوم. هذه الفئات المتضخمة تدخل ضمن الفئات المستهلكة للخدمات، والعالة على الفئة العاملة والمنتجة اقتصاديًا.

هناك فئة منتجة معيلة واحدة في المجتمع المعاصر، مقابل ثلاث فئات مستهلكة للسلع والخدمات وعالة على الفئة المنتجة والدولة.

إن النظر إلى أي مجتمع على الأرض يستند إلى هذه التوليفة. وفي مجتمعات بريطانيا مثل مناسب هنا، فالاقتصاد البريطاني يعاني من تراجع مستمر على صعيد الإنتاج الصناعي، وهو في تحول مستمر نحو الاقتصاد التجاري أو

الاعتماد على عامل السياحة وحركة رؤوس الأموال عبر أراضيه. بالمقابل تسهم الدولة في إعالة قطاعات كبيرة من سكانها، عبر منافذ المساعدات والمنح والتسهيلات الكثيرة، والتي تتيح معدل متوسط للمعيشة أو ما يمكن اعتباره (رفاه معتدل).

•

لقد عاش الإنسان حالة هروب مستمرة من مواجهة الأسئلة الوجودية أو المصيرية، وسوف يستمر في التفنن في الهروب من مواجهة الأسئلة والالتفاف عليها، دون تقديم إجابة عقلية مقنعة لسلوكه ونشاطاته – ما يبقيه في دوامة مستمرة – !.

إن ما يُسمى بالتطور التكنولوجي والمدني لم ينقلب وبالاً على الإنسان المعاصر فحسب، بل جعل (نزعة الأنانية وعقدة الفرد) شعارًا مقدسًا للحياة المعاصرة... وبالتالي، هل نحن نحتاج الآخرين فعلا، ونتعامل معهم من منطلق المحبة والعطاء ؟... أم أننا نحتاجهم لتسخيرهم في تلبية احتياجاتنا وخدمة أغراضنا ؟... باعتبار أن الفرد (منا) هو مركز الكون، وكل ما عداه مجرد أقمار تدور حول(نا) وتخدم حاجاتنا وأنانياتنا...!

من مبادئ التربية الحديثة تقليل تعلق الطفل بالعائلة ، وتشجيعه الاعتماد على النفس والاعتداد بالذات والشجاعة في التفكير المستقل والسلوك المسؤول.

واجه هذا المبدأ مستويات متفاوتة من الفهم والاستيعاب ، وأنماطًا متفاوتة من التطبيق والتمرد.

ما يحدث اليوم في الفكر التربوي ما بعد الحداثي ، ليس القلع الراديكالي للطفل من عائلته ، بل من بيئته [•] ، وإلحاقه بمرجعيات ضبابية عولمية عابرة للحدود ، عبر ألعاب الإنترنت ، أو برامج تراسل مدرسية مع مدارس وجمعيات دولية ، تشجع تبادل البيانات والمعلومات والآراء والصور بين أطفال من بلدان مختلفة ، يشجع بعضهم البعض للالتحاق بجمعيات أو أندية للناشئة والشبيبة للعمل المشترك من أجل التعاون والسلم العالمي أو مستقبل الطفل أو الحريات أو غيرها من الشعارات والعناوين البراقة المثيرة والمزيفة في واقع الأمر.

هده البرامج وُضِعت وجرى تعميمها وإدارتها من قبل منظمات وتشكيلات دولية – غربية – غير معلنة ، تقوم بالإنفاق والإشراف والترويج لإنتاج توجه ثقافي شبابي جديد ، يدين لأفكار وتوجهات سلوكية غير محلية.

وفي شبكات التواصل الاجتماعي عناوين كثيرة مجهولة أو مزيفة تستقطب وتصطاد النفر الضال والغشيم والباحث عن مستقبل مختلف. ولا يتم الربط بين

• **تهتم البلدان المانحة للجوء وقبول الهجرة ، اهتمامًا خاصًا ، بالأفراد القاصرين من ذويهم ، وكذلك بالعوائل ذات الأطفال الصغار ، لتركيزها على الجيل الثاني الذي ينشأ على الثقافة الجديدة ويتحدث لغتهم بغير لكنة أجنبية. وقد برزت هذه الظاهرة في موجة اللجوء المليونية الأخيرة عقب الأزمة السورية [٢٠١٤- ٢٠١٦م] وتهافت الغرب على قبول المهاجرين القصر. وبحسب إحصائية محلية ، استقبلت بريطانيا ما لا يقل عن خمسة وثلاثين ألف طفلاً سوريًا في العام الواحد ، يتم تبنيهم محليًا أو توزيعهم على عوائل حضانة مقابل أجر.**

النتائج المأساوية والجنائية لضحايا النت وبين المواقع والبرامج المسؤولة.

بالمطابقة بين الفكرتين ، الحديثة وما بعد الحداثية ، يلحظ أن الثانية نقضت الأولى ودمَّرتها ، فبقاء الطفل ضمن حضانة الوالدين أفضل له نفسيًا واجتماعيًا من حضانة الجمعيات والنوادي والكروبات / [Fosters' Groups] البعيدة عن الإطار الوطني والثقافي ، والغامضة الأغراض والاتجاهات ، وغير المبررة منطقيًا.

إن الغاية من استقلالية الشخصية لا تسعى لقلع الطفل عن حضانة البيئة والعائلة وإنما تقليل الآثار السلبية للتعلق العائلي المؤدي إلى ضعف الشخصية ، أو ظواهر الخجل المفرط والتردد والشعور بالنقص والخوف من الآخر ، والتي تنتهي إلى العجز عن التكيف والميل للعزلة والاغتراب والاضطراب ، ومشاعر الإحباط والانتحار أحيانًا ، وفي حالات أخرى ، تنتج سلوكًا انقلابيًا عنيفًا ، يأخذ اتجاهًا ساديًا مؤذيًا على المجتمع ، كما في حال كثير من المجرمين والطُغاة غير العاديين.

لقد وقفت دراسات علم النفس السلوكي(•) على نشأة وتربية بعض الحُكَّام الطُغاة، واستنتجت منها قواسم مشتركة، تتمثل في بعضها شدة التعلق بالأم، وفقدان أحد الأبوين في سنٍّ مبكرة، أو التربية الأسرية الصارمة الانضباط.

فالطفل عاجز عن الاختيار أو التمرد التربوي، مما يطبعه بشخصية : متميعة ضعيفة ، مضطربة غير متزنة فكريًا ونفسيًا وسلوكيًا ، انقلابية تنتقم لطفولتها بسلوك عكسي ثأري عنيف.

لعل من المسائل الغريبة والملفتة للنظر ، عند التحري عن سوابق بعض المجرمين وسيرهم ، إجماع المعارف والجيران ورفاق المدرسة على كونهم من الناس الجيدين حسني السيرة والسلوك ، وفي الغالب يتمتعون بصلات أو

• **Arnold Gruen: Die Falsche Guette**

زيجات جيدة.

إذن من أين يأتي الخلل؟...

الواقع أن الشخصيات الاجتماعية أو المسلك الظاهري لدى غير قليل من الناس لا يعكس قناعاتهم وشخصياتهم الحقيقية، بقدر ما يمثل الرداء أو القناع، الذي يخفون تحته اضطراباتهم وتناقضاتهم العنيفة التي تصطرع في دواخلهم، بفعل الأرساب التربوية أو الاجتماعية أو الدينية العاجز عن مواجهتها أو المصالحة معها، فتبقى تصطرع وتغلي كلما وجدت لها متنفسًا أو وسيلة للخروج والانفجار... وقد لا تجد متنفسًا، فتنهار من التفكير والصراع الداخلي الذي ينفجر في لحظة غير موقوتة ويدمِّر كل شيء.

إن الإنجاب والخلق عملية في غاية السهولة والميكانيكية مثل أشياء كثيرة اليوم. أما الشيء الأكثر صعوبة واستحالة فهي الوعي والإدراك اللازم للسيطرة والتوجيه عند كل كلمة أو نشاط صادر بشكل غير مناسب.

كل كلمة أو حركة تتحول إلى طاقة مخزونة عند السامع الرائي - قارن الإنترنت اليوم! -. وفي لا وعي كل شخص مكان أو أمكنة لتجميع المُدخلات السلوكية وخزن الطاقات الناجمة عنها.

وكما تتجمع المواد المشعة وغير المشعة وتتحلل وتتحول إلى مركبات جديدة تغلي بين طبقات الأرض وتنفجر في لحظة في صورة براكين وزلازل وانهيارات أرضية، كذلك هي درجات خزن وطبقات لاوعي الفرد وهي تستقبل جُملة إفرازات محيطها الاجتماعي السيئة وغير المسؤولة، لتتحول إلى أفكار ومسالك وتوجهات تدميرية في وقت لاحق.

فالشدة أو التوتر بالاصطلاح النفسي والاجتماعي مرتبطة غالبًا بالكبت والخجل المفرط والحياء الشديد والأصوات الرفيعة وميول العزلة والتعفف الشديد المترتبة على تربية الصرامة والرعب، وما يترتب عليها من انفلات وتمرد

وشذوذ وعنف غير عادي.

يمكن رصد بعض سلوكيات السياح خارج بلدانهم، وهم يتحولون إلى أشخاص يناقضون شخصياتهم المألوفة في محيطهم الاجتماعي. فالسياحة والسفر تعويض سلوكي نفسي واجتماعي يوفر لصاحبة درجة من التنفيس والراحة واستعادة التوازن.

وعلى العكس يتوقع انفجار الشخصيات المقموعة والمحرومة من التنفيس وترجمة مكنوناتها المصطرعة.

إلى جانب انفلات الشبيبة عند الوصول إلى سن معينة، يشكِّل القمع الأسري والمبالغة في الغيرة والملاحقة بين الزوجين، عنصرًا سلبيًا في التضييق النفسي والسلوكي على الآخر، ويوفر المبررات المنطقية لحالات الانفصال المفاجئ أو العلاقات السرية أو الجريمة التي ينقض فيها المقموع على جلاده.

على كل من الأبوين أن يترك نسبة معينة للطفل للعناية بنفسه والتعبير عن شخصيته والتصرف واتخاذ بعض القرارات بمفرده وبدون إملاءات ونصائح مفرطة وتهديدات وتحذيرات تشله عن الحركة.

وفيما بين السابعة والعاشرة ينبغي أن يختار ثيابه ولوازمه بنفسه، ويتعلم إعداد فطوره وفراشه وتنظيم وقته لمفرده. ويصطلح على صورة العلاقة الجديدة، بالصداقة الأسرية أكثر من أي عنوان آخر.

كثير من العوائل تشدد على استخدم الكنى: ابن، بنت، وبشكل تصغيري أحيانًا: طفلي وطفلتي، دون مراعاة سن الفتى والفتاة، والأثر السلبي لتلك التبجحات أمام المجتمع، وبشكل يختزل كرامتهم.

ويلحظ أن الوالدين يتكلمان نيابة عن أبنائهما وبناتهما، ويسبقونهما في الكلام والردود عند توجيه الكلام إليهم من الغير، ثم يفتخران بلؤم على مدى تربيتهم الجيدة وحياء أطفالهما، والواقع أنه كبت وخوف ومرض لا تؤمن عواقبه.

وعلى العموم ، علينا أن نكون موضوعيين ، ولا تأخذنا العزة بالإثم ، ونحن نراقب واقع مجتمعاتنا والتشوهات الاجتماعية والسلوكية السائدة فيها ، ولا نشعر بها أو بإفرازاتها في مجال الحراك الاجتماعي والنكوص الإبداعي والعنف المستشري في كل الاتجاهات ، دون اتهام نظامنا التربوي التقليدي أو الحديث المشوه.

بالنتيجة ، فالفرد نفسه هو المسؤول عن تربية نفسه وصياغة شخصيته بشكل يكفل لها النضج والتوازن والاستقلالية ، ليس عن العائلة والتبعية التقليدية والدينية فحسب ، وإنما صيانة استقلاليته الشخصية عند الانخراط في علاقات الدراسة أو العمل أو الزمالة والصداقة عمومًا.

ومن أكثر سلبيات التبعية وضعف الشخصية ، أن معظم المدخنين يكتسبون تلك الظاهرة من علاقتهم بالمدخنين ، وهو ما ينطبق على كثير من السلوكيات السلبية والتدميرية على الفرد والمجتمع.

كما ينبغي على الجنسين تفهم أهمية الاستقلالية والحرية الشخصية وثمارها الاجتماعية ، عند الارتباط ، وعدم تقمص دور الشرطي والرقيب والمخبر السري ، واستغلال مرضية الغيرة تحت شعار الحب أو الخوف ، مما يزيد من أمراض المجتمع ، ويتركنا ندور في دائرة مغلقة ، بينما الوحوش يحيطون بالدائرة.

الفرد المسؤول

لست بلا قيمة أيها الإنسان.
لكل كائن خطة ، وللإنسان رسالة ، عليه أن يكتشفها ويعمل بها .
كلنا لدينا قوة الفكر ، وعندما تكون لدينا قوة الإرادة ، يمكننا تغيير أي شيء
دالاي لاما

إن فيكم قوة ، لو استخدمت ، لتغير وجه التاريخ
أنطون سعادة

أكثر الناس مأخوذون بتداعيات الطفولة، والكثيرون لا يحبون الخروج منها.

الطفولة هي الحرية، هي اللامسؤولية، حقوق بلا واجبات، مزايا بلا التزامات، متصرفية ومعصومية، وحكم لا مسؤول. بكلمة واحدة يوصف الطفل أنه (مَلِك) أو شبه إله.

هدا التعلق المرضي بخصائص الطفولة وعقلية الطفولة ، أحد أسباب تأخر نضج بعض المجتمعات وبقائها عاجزة عن تحقيق اكتفائها الذاتي ، أو انجرافها في مرحلة العبودية والقنانة التي تتيح لها الحياة بلا مسؤولية.

التعلق بالطفولة ورفض الانفكاك عنها هو أحد الخصائص الرئيسة لمركب الأنثى التي تميل للخضوع لغرض اكتساب الرعاية والإعالة الكاملة من شخص آخر. هذا ما يجعل الذكاء الاجتماعي لدى الثقافات الأمومية امتيازًا رئيسًا ومقومًا أساسيًا في حياتها.

فالعزلة والانطوائية حالة غير واردة وغير محتملة لدى المرأة عمومًا ، كما لدى أبناء المجتمعات الأمومية كالمصريين.

يصف علماء النفس البعض بتأخر النضج النفسي وعدم انسجامه مع النمو والعمر البيولوجي. وفي علم النفس الحديث والتربية الغربية يجري تعجيل النمو النفسي واختصار مرحلة الطفولة – النفسية – لصالح النضج العقلي المبكر ، الذي يجعل أبناء الغرب يبدعون ويتميزون ، ويكونون قادرين على مواجهة مواقف الحياة بوقت أسرع وكفاءة أكبر من سواهم.

بينما يتأخر النضج النفسي والعقلي وتتمادى مرحلة الطفولة في مجتمعات أقل تطورًا ، فيتزوج أبناؤها وينجبون وهم في رعاية الوالدين ، ودون دخل وعمل مستقل بهم.

إن خطورة هذه الظاهرة تنعكس في مسألة الإرادة والإدارة العامة والقرار السياسي. فللخطاب الاجتماعي للفرد واستقلال الشخصية والعجز عن تنظيم الحاجات أو توظيف وإدارة جماعة الأفراد ، نتائج مباشرة لتأخر سن النضج النفسي والإدراك العقلي ، مما يسهل وقوع الجماعة والمجتمع تحت وصاية ورعاية جهة خارجية أو سلطة دينية شمولية. كما حصل في العراق عقب الغزو الأمريكي ، حيث تكثر التمنيات والشعارات الطوباوية ، وتغيب آليات الإدارة والتنظيم والشخصيات القيادية الوطنية الكفء.

الثقافة التربوية والبنى التحتية المتكاملة للمجتمع والدولة ، تشكلان القاعدة الأساسية والأرضية الحاضنة لفرد ناضج سليم مستقل ومدرك لأهمية وجوده الشخصي والمجتمعي، فرد يدرك ويفكِّر ويصدر عن ذاته في خطابه ومسلكه، وليس ببغاء يصدر عن ما يسمع ويُملى عليه ويستعبد نفسه لنصوص ميتة ومقولات تكرارية جاهزة ، تعج بها رفوف محيطه الاجتماعي وبرنامجه التربوي.

ففي مجتمعات الجمود والأوساط الدينية يعتبر الانقياد الأعمى والترديد الأعمى لمقولات ونصوص الشيوخ والآباء والرموز المحنطة اجتماعيًا وثقافيًا ، معيارًا خلقيًا يهيل عليه ثناء المجتمع ، بينما يراوح المجتمع عمومًا وتتراجع قدرات

أفراده على تلبية حاجاتهم الأساسية وإدارة أمور حياتهم ومجتمعاتهم بدون كوارث وخسائر تاريخية.

وتشكل الثقة العمياء بالنصوص والتليد الجامد أبرز مظاهر العبودية وأسباب العوق المجتمعي والسياسي، عندما يتفاخر(•) الفرد بنفسه وبمنجزه ويحيل تبعات الخطأ والخسارة على الغير. فهذا الشخص هو مثال جاهل يجهل أنه جاهل، ويكلِّف المجتمع والوطن تبعات عدم تراجعه عن موقعه وأخطائه ليتيح الفرصة لغيره في المسؤولية الحقة.

لقد ارتبط قدر العراق، كما سواه من بلاد الدنيا، بشخصيات حُكَّامه المميزين في القوة والاقتدار والكفاءة على مدى التاريخ. بينما كان العراق يغيب ويتراجع ويسقط ضحية السيطرة والتبعية الخارجية عندما يكون حكامه ضعفاء وجهلاء بالإدارة والقيادة.

ان تاريخ العراق مثلاً هو تاريخ سرجون وحمورابي ونبوخد نصر وأشور بانيبال والرشيد والمأمون وداود باشا ومدحت باشا ونوري السعيد. الحاكم القوي ينتج حكومة وإدارة قوية وحكيمة ويبني بلدًا مستقرًا راسخًا ومهابًا بين جيرانه والعالم، ويجعله قبلة للحضارة والثقافة والريادة... وعلى العكس منه حين يحكمه الضعفاء والسفهاء (•) فيفقد مكانته وتتسيب حقوقه وينذل أهله ويتشرد أبناؤه ويصبح لعبة للدخيل والطامع والغزوات الخارجية.

فالخطأ هنا يتمثل في شخصية الفرد وتكوينه الذاتي والنفسي، المتصل بطبيعة الفكر التربوي العراقي والنظام الأسري المنعكس على تفكك النسيج الاجتماعي والمجتمعي في العراق المغيب ثقافيًا وسياسيًا بأثر ذلك.

ومن مظاهر الانهيار التاريخي وغياب الكيان الوطني، أن يتفاخر بعضهم في

- **"من يكثر من المباهاة والتفاخر ، يجلب على بيته الدمار"- سليمان الحكيم : (أم ١٧ : ١٩).**
- **"حينما يتسلط الاشرار ، يتوارى الأبرار"- سليمان الحكيم : (أم ٢٨ : ٢٨).**

واجهات الإعلام بولائه لعقيدة -دينية/طائفية/عرقية قومية-، مؤجلاً (انتسابه المعيشي) للوطن إلى نهاية القائمة، متناسيًا أن ولاءه العقيدي الديني يؤكد ولاءه الأجنبي لبلد العقيدة الأم ونظامه السياسي، وتلك هي عتبة الخيانة العظمى.

ومن طرائف الحالة العراقية الغارقة في فسيفساء عرقية قومية دينية طائفية متشرذمة في أحزاب ومليشيات عقب الاحتلال الأمريكي [نيسان ٢٠٠٣م]، أن يتم تدعيم التمزق السياسي والاجتماعي بأحزاب وتجمعات سياسية ومدنية خارجية الفكر والولاء، ولا تكاد تجد في القاموس العراقي جماعة عرقية أو دينية أو سياسية عراقية المنبع والهوى والاتجاه.

تلك الحقيقة الغائبة في فضاء الضياع الذي يبتلع العراقيين ويدفعهم لمزيد من التشرذم، بدل الوقوف الجريء والمقتدر على أصل الداء وتطبيق العلاج بحزم، بعيدًا عن المجاملة ومواطنة الخلل والفساد، مهما كانت مبرراته ومن وراءها.

يتساوى في ذلك الإسلام دينًا، والتشيع مذهبًا، وما استتبعه من هجرة إيرانية -التفريس- على طائلة العتبات الدينية. ومثلهم في ذلك تنامي الوجود الكردي الزاحف من الزاوية الشرقية الشمالية باستمرار في عمق الأراضي العراقية، وما يقابله من هجرات وغزوات جنوبية وغربية لمواجهة وموازنة النفوذ السكاني والسياسي من الشرق والشمال.

بينما تركت الحكومات ومراحل السيطرة والتبعية الأجنبية، أطيافًا سكانية قومية وطائفية بالمقابل كالهنود والأفغان والتركمان والأرمن والشيشان والبولند، وصولاً إلى التيارات السياسية والأيديولوجيات الخارجية كالشيوعية والناصرية والبعثية والليبرالية والأحزاب الدينية كالدعوة والمجلس الأعلى والحزب الإسلامي العراقي وغيرها من مسميات مستوردة استنسخت داخل الواقع العراقي لخدمة أجندة خارجية على حساب الدم والنفط العراقي.

سوف يجري استنكار مثل هذا الرأي، وكلٌّ يدعي وصلاً بليلى.

فالعراق السومري البابلي الذي كان يقود ويحكم ويتصدر الحضارة والثقافة للعالم ، تحول إلى سوق استهلاكية وميدان تصفية صراعات وأطماع إقليمية ودولية، وتعرض تكوينه الديمغرافي لعمليات قيصرية دينية وسياسية واقتصادية جعلته بلا هوية ولا ثقافة أو انتماء ولا مستقبل.

obeikan.com

الفرد الإيجابي والوجود المنسجم

كل نقطة فيزيائية تتحكم بها قوتان : مرئية وغير مرئية.
القوة المرئية يمكن ملاحظتها والتحكم بها من حيث النوع والدرجة، أما القوة غير المرئية فلا يمكن ملاحظتها والتعرف إليها ، لأنها غير مادية ، غير معروفة الأصل والطبيعة وحجم التأثير.

هذا الاستنتاج صاغه "توينبي" بطريقة أوسع عندما اعتبر أن الإنسان يعيش في عالمين في وقت واحد، هما عالم مادي، وعالم روحي.

عالمان. فليست الطبيعة والوجود فحسب ، وإنما الإنسان نفسه ، يتأرجح بين العالمين... المستويين : المادي والروحي.

وقد اكتشف الإنسان القديم قوة العالم الروحي وعبَّر عنه بالدين ، الذي كان أرقى وأنقى من الدين المعاصر. بينما اصطلح توينبي على الفعل المادي بالتكنولوجيا التي هي بإيجاز : التصنيع اليدوي.

إذا كان العالم المادي يتكون ويتمثل بما يعمله الإنسان في الطبيعة ، فالعالم الروحي، غير المادي، خارج دائرة فيزياء الطبيعة، وبعيد عن إرادة الإنسان.

الواقع... أن الفقرة الأخيرة غير دقيقة تمامًا ، وتتعارض مع فكرة أن الإنسان سيد وجوده، بل سيد الطبيعة.

فالعالم الروحي لا يؤثر فقط في الوجود ، وإنما يتأثر سلبيًا بكل ما يجري في الطبيعة ويتفاعل داخل العالم الفيزيائي.

لماذا يوصف التأثر بأنه (سلبي)، ولا نقول أنه إيجابي.

هذا ينطلق من فكرة أن الطاقة الأصلية في الكون هي طاقة (إيجابية) في أصلها وجوهرها. أما الطاقة (السلبية) فهي انعكاس ورد فعل عامل فيزيائي أرضي.

في اللغة الروائية تمر بنا عبارة (تكهرب الجو)، بمعنى ساده التوتر والتشنج والاحتقان والشدة المنذرة بالمجهول مما لا تحمد عقباه.

وتكهرب الجو يحدث بفعل الانفعال أو الخصومة والكلمات والتصرفات السيئة. الجو في أصله صاف رائق ساكن، لكنه يفقد طراوته ورونقه عندما يدخل عامل توتر سيء يقلب الأشياء رأسًا على عقب. هذا العامل المتوتر لا يأتي من الخارج، وإنما من داخل الإنسان ونزعاته النفسية والفكرية التي تدفعه للانفعال والسلوك بشكل يضر بالمحيط الحيوي.

ولتهذيب سلوك الإنسان وتوجيهه ليكون جادًا وإيجابيًا، كانت الحكمة [Sophia] التي هي غاية كل إنسان ومعيار رقيه واعتباره.

الحكمة عند الإغريق هي غاية المعرفة التي تفوق الفلسفة، وهي عند العرب غاية الأخلاق، وعند الهند هي غاية الدين.

والحكيم هو الإنسان الفاضل العارف التقي الزاهد المتعفف المتسامي المالك لنفسه والكاظم لنزعاته والموجه لنوازعه، من يسلك في الضرورات ويتجنب التوافه، من يجعل كل شيء موضعه ولا يلقي الكلام على عواهنه.

وقد اشتهر سقراط بالحكيم عند الإغريق واشتهر المعري عند العرب وهو سجين المحبسين وصاحب اللزوميات الشهير، واللزوميات هي الضرورات القصوى. ومن مشاهير الحكماء أفرام السرياني القائل بأن كل ما زاد عن الضرورة يدخل في السفاهة !

فالعبرة هنا ليست بإشباع المشتهيات والاستغراق في الملذات وإتباع كل هوى والانصياع العبودي لسلطان النفس ونزعات الغريزة، مما يعتبره كثيرون صورة للترف والسعادة والغرف من منابع الحياة حتى بحبوحة الموت والفساد. فكل ما زاد عن حده انقلب إلى ضده !. وهو مبدأ في الفلسفة والسلوك، والطب والاجتماع، كما في كل شيء، مادي أو معنوي.

إن ما يفند مبدأ اللذة هو وجود العقل ومغزاه. فالعقل بمثابة قبطان سفينة الجسد، يوجهها ويتحكم بها ويمنعها ويقمعها عن التمادي والتمرد والتطرف والزيغ عن مبدأ العقل والحكمة.

بالعقل خرجت البشرية من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الوحشية إلى التحضر ، ومن التخلف إلى المدنية ، التي غيرت صورة الحياة على الأرض منذ القرن العشرين.

العامل الثالث إلى جانب الحكمة والعقل هو إرادة الفرد **[The Power Of Will]** الذي قال به روسو وكان أساسًا ، إلى جانب أفكار أخرى ، لتأسيس المجتمع المدني والدولة الحديثة والقواعد الدستورية في أوربا والعالم أجمع.

فالإرادة لا تفصل بين الإنسان والحيوان فحسب، وإنما تميز الإنسان الراقي عن المتخلف.

مفهوم الإرادة هذا لا يعني أن تعمل ما تشاء، وإنما أن تعرف وتتحكم بما تفعل وتقول.

والمبادئ الأخلاقية عمومًا تشيد بالفرد الذي ينتقي كلماته وأفكاره ، ويتحكم بسلوكه ، وهو طبعًا أمر ليس بالهين ولا يطيقه كثيرون. فعبودية البعض للغريزة ونزعات النفس السيئة من حسد وغيرة وطمع وبغض وانفعال وميل للعنف والأذى ، هي مظاهر البدائية وعدم التحضر وضعف الإرادة والعقل وغياب الحكمة.

وبقاء قطاعات من البشرية على هامش الحضارة والمدنية ، أو الاكتفاء بالاستهلاك والقرصنة على منتجاتها ، دون العلم والتكيف والتحول الإيجابي للارتقاء بالنفس والعقل والسلوك ، يضيف إلى رصيد الخسارات ، ما يجعل الأمل والمستقبل المشرق أبعد من كوة الشمس.

التفاعل الإيجابي

سألتني رسَّامة نمساوية عن الإنسان بين الشرق والغرب، وهل هو نفسه أم مختلف ؟... وكان جوابي هو الاختلاف، وسبب الاختلاف نوعي يتمثل في العقلية [mentality].

فكان جوابي لها غير ما توقعته ضمن نزعتها الإنسانية.

إن أحد الأسباب البنيوية لفقدان السلام والانسجام الاجتماعي هو استسهال المفاهيم والأشياء، والاستسهال يعود إلى سطحية الفهم وضحالة التفكير والبحث عن حلول سريعة.

بعبارة أوضح... أن الحياة في حقيقتها ليست مجرد حاجات وأفكار، وإنما مشاعر ومواقف متبادلة. هذا التبادل والتفاعل العاطفي والفكري متصل لحظة بلحظة ويدخل في كل شيء، في الكلام والسكوت والنظرة واللمسة والطعام والثياب والألم والفرح وأخبار الإعلام والحياة العامة.

والمقصود هنا ليس الخلاف والاختلاف في الرأي والموقف، إنما في اختلاف أرضية الفهم ومنطلق التعاطي مع الأشياء. فرأيك في الطعام يستند إلى أرضية مفاهيم ومرتكزات معينة، تختلف عنها لدى شخص آخر. فالحاجة والجوع ليست العامل الوحيد، وإنما الخصائص النفسية والاجتماعية والثقافية التي تمثل خصائص الهوية الشخصية والثقافية، كما هي خصائص الهوية الوطنية والقومية والطائفية في مستوى أوسع.

إن أُسس الحياة وأساسياتها متشابهة لدى الإنسان البدائي، الذي يعيش في المرحلة الحيوانية. لكن مستلزمات الحياة الإنسانية تتجاوز الحاجة البدائية الجسدية إلى الحاجة النفسية والثقافية، تتجاوز المادة إلى الأسلوب. لذلك اختلفت أنماط الثياب وقصّات الشعر وطرق إعداد الطعام، وخضعت كل تفاصيل الحياة

لمستويات متقدمة ومعقدة من التنظيم والإدارة والتقنين والتفاوت من شخص لآخر ، ومن فئة لغيرها.

لعل من أوائل الأشياء التي قادتني لاكتشاف الخلافات والاختلافات ، هو طريقة تعاطي الشعور والفكر في موقف حياتي معين ، مثل حادث سيارة ، أو موت شخص أو قرار سياسي. فالموقف الإنساني –رد الفعل– هو عنوان عام ضبابي تتخلله كثير من التفاصيل والحيثيات التي تنتج المغايرة والتنافر بين الناس في أبسط دقائق الحياة.

نحن نتفق في الهدف أو العموم ، ولكن نختلف في نقاط التفاصيل ، إلى حد ينسف اتفاقنا أو تشابهنا السطحي. وهذه من سمات –أمراض– الحياة المعاصرة وانعدام أو صعوبة السلام الاجتماعي والانسجام السياسي داخل الجماعات والدول غير المتطورة.

يحاول البعض تبرير الاختلاف بواقع التطور الاجتماعي والمدني ، ولكن هذا لا يمثل نقطة جوهرية بل ثانوية في الموضوع ، وهذا ما أسميه: (منتالتي).

إن تعريف الإنسان في أبسط صوره هو كائن تطوري. فهو إنسان لأنه متطور وغير بدائي. أما البدائي فهو الحيواني.

الحاجة للطعام والجنس والحماية هي حاجة حيوانية ، لكن أسلوب الطعام والجنس والحماية يختلف بين الحالة البدائية والحالة الإنسانية التطورية.

الإنسان مند خمس عشرة ألف سنة لا يلتقط طعامه من الأرض والشجر ولا يمارس الجنس من غير شروط متحضرة ، ولا ينضوي عشوائيًا في أي جماعة لمجرد الحصول على حماية. وهو أمر نلمسه لدى طفل الإنسان الرضيع ، كما لدى المريض والشاب والعجوز. هذا ما يجعل الإنسان إنساناً ، وما يجعل جماعة ما مدنية راقية أو متخلفة.

هذه المنتالتي / العقلية لا تختلف بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، وإنما

بين بلد وآخر، وطائفة وأخرى، كما تختلف من شخص لآخر.

وقد جاء التطور وانفتاح إطار ومفهوم البيئة والمحيط الاجتماعي عبر المدرسة والإنترنت ليزيد من الخلاف بين أفراد الأسرة الواحدة، بل عند الشخص الواحد في المواقف والمستويات والمراحل المختلفة من العمر والظروف. يقول شاعر معاصر (•):

إني أقرّ على نفسي وأعترفُ أني معي دائمًا في الرأي أختلفُ

لقد اعتقد البعض أن وسائل الاتصال الإعلامي والاجتماعي، التكنولوجية والإلكترونية سوف تقرِّب بين الناس في أطراف الأرض، ولكنها بالنتيجة زادت من عدم الانسجام داخل الأسرة والمجتمع المحلي. وبالتالي، كانت الخسارة القيمية والمفاهيمية لحضارة الاتصالات والعلاقات الإلكترونية، أكبر من الخسائر المادية في ظل انعدامها أو قبل ظهورها.

ولسان حال ديكارت الجديد يقول : أنا أختلف، أذن أنا موجود !.

إن مفاهيم العائلة الإنسانية والعالم الواحد، من تراث المشاعية - الاشتراكية - الطوباوية، تعرضت لنسف تام على أرضية الثقافة الرأسمالية الإمبريالية، التي تقدِّس العملة النقدية أولاً وأخيرًا. وليس الإنسان - في نظرها - غير سلعة وسيطة وأداة استهلاكية لخدمة التراكم الرأسمالي النقدي.

• **الشاعر عبد الأمير جرص [١٩٦٤- ٢٠٠٣م] ، مواليد العراق / ميسان ، توفي في كندا. له : أحزان وطنية ، قصائد ضد الريح.**

الفرد و الزواج

الزواج شرٌّ لابد منه !

ثمة خطيئة عند الباب تنتظرك ، احذر أن توقع بك !

طوبى للعواقر اللواتي ما حملت بطونهن ولا أرضعت أثداؤهن !- السيد المسيح (•)

ربطت قصة الخليقة التوراتية مفهوم الجنس بالمعرفة والإدراك ، وجعله سببًا للخروج من الفردوس. وهو الخروج الذي تكلّل بجملة من اللعنات ، شملت الأفعى والأرض والمرأة والرجل ونسلهما ، وهي مناسبة أول ذكر للمعنى في سفر التوراة.

ويشكِّل العزوف عن الجنس والزواج أعلى درجات الزهد والتقوى الخلقية والروحية.

وقد وضع الكتاب المتوحدين ، ممن انتبذوا المرأة ضمن صفوة الخلق الخالدين أمثال أخنوخ وإيليا ويسوع !.

إن قراءة تأملية لفلسفات جلجامش وبوذا وأفلاطون ويسوع في مواقفهم من المرأة والزواج تدعم هاته الرؤية التي عمل الفكر البشري والديني سواء على تغشيشها وطمرها. وتمثِّل سيرة يسوع الناصري وأقواله المنددة بالخضوع للغرائز والحاجات الأرضية والجسدية وتطويبه للحوامل والبتول أوضح شهادة في هذا المجال.

الزواج في تعريفه هو نظام اجتماعي تقليدي لتأطير العلاقة الجنسية بين اثنين ،

• لوقا ٢٣ : ٢٩

obeikan.com

لغاية الإنجاب وتأمين ديمومة نسل المرأة. ويربط الانثروبولوجيون بين فكرة العائلة وظهور الزراعة المستقرة. ولما كانت المرأة أول من مارس الزراعة المستقرة، فهي صاحبة فكرة الزواج والارتباط المستمر والمستقر بالرجل.

فالزراعة والسكنى والعائلة ، ثلاثة مفاهيم مترابطة تاريخيًا واقتصاديًا واجتماعيًا. ومع تطور الحياة الاقتصادية وتجاوزها الزراعة، فما زالت علاقة العمل الثابت تستدعي حياة الاستقرار في السكن والاجتماع العائلي.

هذا التفسير الاجتماعي للزواج، لا يلغي من الجانب الآخر ، الجانب النفسي للغريزة ودورها كحافز للحياة وامتصاص التوترات والضغوط النفسية والاجتماعية والعضلية.

فكما أن الإنسان يميل للطعام والشراب ، ليس نتيجة الجوع والعطش المادي ، وإنما لتنفيس حالات نفسية واضطرابات مزاجية في حالات الحزن والفرح سواء ؛ يصلح نفس الدافع لتعويض الطعام بالجنس والالتصاق الحميم بجسد دافئ. وقد يحفز أحدهما الآخر غالبًا. فتظهر الحاجة للطعام عقب ممارسة الجنس، والعكس ممكن أيضًا.

فالحاجة المادية والحاجة النفسية ، متلازمتان حيويتان ، يستعين بهما الكائن الحيوي، للهروب للأمام من حيرة لغزه الوجودي. وقد أحسن الشاعر بقوله : (وداوني بالتي كانت هي الداءُ)!. فعجز الفرد عن معالجة خطأ معين أو التماسك تجاهها ، يشكِّل دافعًا للتمادي في الخطأ. وفي حلقات المافيات الإجرامية ، حين يُدفع عضو جديد لممارسة فعل إجرامي معين ، يتم تكليفه بأكثر من عمل متعاقب، بحيث لا يُترك له وقت للتفكير أو مراجعة نفسه.

إن ضمير المرء يصحو عقب إتيان صاحبه لفعل جديد غير مأنوس، ويبدأ في تبكيته وتعذيبه القاسي بشكل يدفعه ويساعده للتكفير والتطهر من الخطأ . ولكن عندما تتكرر مرات الخطأ أو الجريمة، يشعر المرء بالعجز والقنوط من تحرير

ذاته.

فالأشخاص المحترفون في ممارسات عدوانية هم في واقع الأمر، أفراد وقعوا في الخطأ الأول في ظرف ما طارئ، ثم تحول إلى احتراف بالتكرار، وشعروا بالعجز واليأس من استعادة أنفسهم وبراءتهم عقبها.

لا يختلف الأمر في حالات تجربة التدخين، أو تعاطي الكحول، أو المخدرات لأول مرة. فالانقطاع الطويل يساعده في النفور من تكرار المحاولة. ولكن عند توفر أسباب معينة مثل دعوات رفاقية للممارسة، أو ضعف شخصية الفرد وعدم قدرته على التماسك، تحيله مدمنا. هذه الأمثلة تنطبق أيضًا على العلاقة الجنسية الأولى، التي تحفز في صاحبها الرغبة والاندفاع لتكرار الفعل، إلى درجة سحق المشاعر المصاحبة للفعل أو التي تعقبه. أي تحويله إلى ممارسة عادية.

العادية هي قتل الشعور والتفكير بطبيعة العمل.

والعادية هي الدين الأكثر رواجًا في المجتمع البشري، وفق مقولة (حشرٌ مع الناس عيد). السجين في زنزانة مفردة يعذبه شعور أنه السجين والمضطهد الوحيد. لكن وجوده في عنبر جماعي، يخفف عنه وطأة الوحدة وتعذيب الذات.

العادية والتكرار... عند تطبيقهما في حالة الزواج أو تكرار الزواج، يفسران سبب شيوع الممارسة، وبشكل جعل منها نوعًا من القانون والعرف العام. وبشكل يجعل العزوف عنها مدعاة للتساؤل والاستهجان.

وعلى العموم يمكن ملاحظة أن أكثر الممارسات شيوعًا وسرعة في التداول، هي الممارسات السيئة والضارة. وأن الناس يرغبون في التساوي في الضرر، أكثر من رؤية شخص عصامي متماسك، لا يفعل ما يسوء أو يضر، ولا تحكمه الضرورة.

العلاقة الجنسية أو نظام الزواج، يشكِّل القاعدة لعامة النظام الاجتماعي، أو

صورة المجتمع والقبيلة أو المدينة. وقد اشتقت منه منظومة علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية قائمة على المصاهرة والدم والتكافل والولاء والمبايعة والحصانة والحرمة والشرف.

فالعلاقة الجنسية تشكِّل العائلة النووية الأولى التي سوف تتسع وتستعرض بتعدد الزوجات أو العلاقات الجنسية مع الجارية والخادمة ونساء العبيد ، ثم ينمو الجيل الثاني بزواج الأبناء والبنات من عوائل نووية أخرى ، ومن مجموع الأبناء والبنات وعوائلهم الجديدة مع عوائل آبائهم ينتج مجتمع قبلي يتزعمه الأب الكبير ، عميد (عمود) القبيلة.

ويمكن للقبيلة الاستمرار في التوسع ، أو الانغلاق على نفسها في زيجاتها ومصاهراتها ، كما يمكن أن تتشظى وتخرج منها عوائل تشكِّل نويات قبلية جديدة، متفرعة من العائلة والقبيلة الأم.

هذه التطورات المتراكبة، جعلت الزواج نوعًا من الرباط المقدس لحفظ ديمومة وقوة الجماعة أو القبيلة أو الأمة. وشكلت المرأة المصنع الأساسي والمركزي لزيادة القوة العددية لحجم القبيلة والأمة.

فالمرأة وقدراتها الجنسية والإنجابية هي ماكينة الأمة الاستراتيجية ، وعلى زعماء القوم أن يضعوا السياسات الضرورية لتطوير استخدام الطاقات البشرية النامية ، بدءًا بالقوة العسكرية الكفء ، والقوة الاقتصادية المزدهرة ، والنُخبة الثقافية والسياسية التي تواصل تطوير الإمكانيات المادية واستمرار المكانة اللائقة للأمة.

الفرد هنا لا يعيش لنفسه ولا يعمل إرادته، وإنما هو عضو في جهاز القبيلة أو الأمة. ومن أولى واجباته المساهمة بحفظ مدد الطاقات البشرية عبر آليات الزواج وتعدد الزواج. وفي كثير من الجماعات كان سنُّ الزواج يبدأ مع النضج الجنسي للفرد ، ولا سيما الفتى ، مع بدء مشاعر المراهقة. وفي حالات معين

يمكن للفتاة أن تنضج داخل مؤسسة الزواج ، ولذلك كان سنُّ زواج البنت مفتوحا ، وسابقًا لبلوغها الجنسي.

الزواج المبكر للجنسين يضمن إنتاج أكبر عدد ممكن من الأطفال ، وعدم هدر الطاقة الجنسية في غير محلها. فالاستثمار الجنسي للكائن البشري حظى بقدر أعظم من عناية الجماعة ، وبشكل سابق على مبادئ الاستثمار الأفضل في الاقتصاد أو العلوم والصحة والتعليم.

وقد اشتهرت مجتمعات شرق آسيا بكثافتها السكانية منذ القدم ، واستمرار تقاليدها في الزواج المبكر ، وانتشار الجهل والمرض وتخلف فنون الإدارة والتنظيم ، نتيجة القدسية والعادية القهرية المتوارثة حول مفاهيم الحياة والجنس والإنجاب. ومنذ القدم ، كان الشرق مصدر الهجرات البشرية وتصدير السكان في أرجاء الأرض.

وفيما نجحت المجتمعات الرشيقة في ابتكار وتطوير نظم حياتية وإدارية متقدمة للمعيشة والسلوك والتفكير ، استمر التخلف والجهل ومنتجاتهما سمات تاريخية راسخة في بنية الشرق العاجزة عن تحرير ذاتها.

وبدل الاقتداء بالرشاقة والعقلانية الأوربية ، عادت بيئات التخلف إلى نوع من السباق غير المسبوق لضرب أرقام قياسية في كثافة سكانها ، رغم أزماتها الاقتصادية والسياسية العويصة.

وفي ربع القرن الأخير ، زاد عدد البلدان التي نفوسها يقرب أو يتجاوز المائة مليون [ماليزيا ، باكستان ، تركيا ، مصر ، بولونيا ، البرازيل] ، وفي ربع القرن المقبل سوف تقفز بلدان أخرى لنادي ما فوق المائة.

كل ذلك يترافق مع فشل برامج التنمية القومية، والمد العكسي للدين والحضارة، وتفاقم أزمة المياه والطاقة والغذاء ، وعدمية المستقبل.

إن النتيجة الحتمية التي ترتبت على كثافة السكان عبر التاريخ كانت الحروب.

وحروب المستقبل لن تستخدم الخيل والرماح والنبال، كالسابق.

ضمن هذا النوع من السباق الإنجابي ، وازدياد شعور مجتمعات أوربية باقترابها من حافة الانقراض الجنسي وفقدان الهوية الغربية، وبعدما تمَّ التنديد مطولاً بسياسات أدولف هتلر حول الإنجاب وإرقاء الجنس الجيرماني، تنشغل إنجلترا بوضع قواعد جديدة للعائلة ورفع نسبة الإنجاب إلى خمسة أطفال لكل زوجين. ترافقها ضوابط مشددة للحد من زيجات إنجليزية مختلطة، مع الملونين بحسب الاصطلاح.

لقد قام بلير في أواخر عهده بفتح الباب أمام الهجرة البولونية إلى إنجلترا ، لموازنة العنصر الملون في البلاد. ويشكل البولونيون اليوم أحد الجاليات الكبيرة المرغوبة والمدعومة رسميًا، وفي خلال فترة وجيزة، دخلت عناصرها مرافق الاقتصاد والبنوك والمؤسسات الحكومية.

وفيما تواصل حكومة كاميرون إجراءات بلير في برامج الهجرة، تضيف إليها إجراءات أخرى لاستقدام الرومانيين ، والتضييق على المهاجرين الملونين ، والعمل على خلق ظروف إفشال زيجات الإنجليز مع الملونين ، وفي حالات الانفصال، يتم ضم الأطفال الملونين للجزء غير الإنجليزي. إن أحد وجوه تلك السياسة هو تشجيع ظاهرة السنغل ، والعائلة الوحيدة المعيل ، ومنها السماح بالزواج المثلي وحقهم في تبني أطفال.

وقد ردَّت الأمم المتحدة في قرار لاحق مبينة تزايد النزعة العنصرية في المجتمع البريطاني. حيث تأخذ الإجراءات الجديدة طابعًا اجتماعيًا تثقيفيًا غير مباشر ، لتأكيد المكانة الخاصة للإنجليزي في بلده، في العمل والزواج والسكن وغيرها.

هذا يضع على البلدان الآسيوية والأفريقية مهمة أساسية لتحسين معدلات الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وتدعيم قواعد الاستقرار والأمن، بحيث تؤمن لسكانها

الظروف المناسبة وتحد من هجرتها، للبحث عن الحياة اللائقة في الغرب.

وأعتقد أنه أمر ضروري ومشروع، طالما تهربت منه النُخب السياسية الحاكمة في آسيا وأفريقيا، لدعم إقطاعياتها السياسية والاستفراد بالمال العام.

فالفارق الحضاري بين الغرب والشرق ، هو اهتمام الغرب بأبناء مجتمعاته وتوفير أفضل الظروف لهم ، بينما تفسد حكومات الشرق وتتمادى في النهب واضطهاد المعارضين لخدمة أغراضها الشخصية والفئوية على حساب البلاد والعالم. والضحية دائمًا هو الفرد.

obeikan.com

الفرد والسياسة

لقد زادت معاناة الإنسان منذ ظهور الدولة والحكومة والسياسة.
واليوم أصبحت أكثر سوءًا مع انتشار الديمقراطية غير المدروسة، وإضافة قوافل البرلمانيين للطغمة السياسية وما تشكله من عبء على المال العام، مقابل تراجع إمكانيات الأفراد العاديين وتردي ظروفهم.

من حقك أن لا تكون سياسيًا، وتتجنب كل حلقاتها ومراكزها، لكنك رغم كل شيء، لن تستطيع أن تكون بمنجى عن تأثيراتها. السياسة مثل التدخين، عدم اقترابك من السيجارة، لا يمنع وصول أضرارها إليك.

والسياسة اليوم، في عالم ما بعد الحداثة، لا صلة لها بمبادئها النظرية وأصولها الأكاديمية التي لا زالت كليات العلوم السياسية تغرِّد بها، وإنما هي جزء من منظومة فن العلاقات العامة الذي يشكِّل إطارًا وأداة لمفهوم البزنس الجديد.

فالسياسة اليوم، شأن كل شيء في الوجود، مجرد بزنس، يخضع لمبادئ الربح والفائض التجاري ومعدل سعر الفائدة وتقلبات البورصة.

صنَّف أرسطو السياسة في باب الأخلاق، والأخلاق قواعد تنظيم العلاقات بين الأفراد. والسياسة هي قواعد تنظم العلاقات بين الحكومة والأفراد، وبينها وبين الحكومات الأخرى، وقد تتدخل في تنظيم العلاقات بين الأفراد أنفسهم.

العلاقة كمبدأ عام، خيط يمتد بين جهتين، على درجة من التقارب والتماثل والتكافؤ. وكلما زادت نقاط التقارب والتماثل والتكافؤ، كانت العلاقة في أفضل مستوياتها. والعكس بالعكس.

العلاقات أيضًا ترتبط وترتهن بالظروف العامة والمزاج الشخصي. والظروف والمزاج عرضة للتغير، وبقدر ما ينعكس أثر التغيرات على علاقة ما تضطرب وتسوء. وأفضل العلاقات ما تمتع بالأفضلية، واقترن بالاستقرار والثبات.

الشروط المثالية الفضلى ترتهن بالمثال. وعالم المثال كما رسمه أفلاطون ليس على الأرض.

السياسة قد تصدرها حكومة أو دين أو قبيلة أو شركة، وكل من هؤلاء مؤسسة جمعية. والمؤسسة بالتعريف القانوني كيان معنوي يمثل رغبات جماعة من أفراد يجتمعون حول أهداف ومصالح معينة. والسياسة هي الأسلوب الذي تعتمده مؤسسة أو جماعة معينة لفرض إرادتها وتحقيق مكاسب معينة.

والسؤال هو هل السياسة تخدم أفراد المجتمع، أم تعمل على حسابهم؟.

القاعدة الفقهية للقانون تفترض أن الحكومة ممثلة لرغبات وإرادات أفراد المجتمع. وهو تعريف طوباوي، لأنه لا يمكن افتراض المجتمع المكون من ملايين أو عشرات الملايين أو مئاتهم، على أنه فرد واحد يمكن تحديد رغبته وأفكاره ومزاجه.

وما هو المعدل العام لما يدعى مصلحة عامة ورغبة عامة وفكرة عامة، إلا حساب أفراد المجتمع أنفسهم. وعندما يكون مردود الفرد من المصلحة العامة مقدار واحد أو أقل من واحد في المائة أو حتى أعشار الواحد. فمعناه أن الفرد لا يستفيد شيئًا من سياسة الحكومة في واقع الحال.

في العلاقة بين اثنين، عندما تكون الفائدة أقل من النصف، فالنتيجة توصف بالخسارة، نسبة للطرف المقابل على الأقل. هذه صورة العلاقة بين الفرد والحكومة أو أية مؤسسة أخرى.

لكن العلاقة مع الآخر، ومنها الحكومة لا تقتصر على الحقوق وإنما تتعداها إلى واجبات. وعلاقة الواجبات لا تختلف عن علاقة الحقوق. وعندها يجد الفرد نفسه مكلَّفًا بقدر أكبر من الواجبات، مما تقدمه له الدولة له من حقوق.

نقطة الصفر في كيان الدولة هي تأمين الخدمات الأساسية أو القواعد الارتكازية في المجتمع والدولة، وهي خدمات الماء والكهرباء والمجاري والصحة والأمن

ويضاف لها التعليم والتلفون والمواصلات.

وباستثناء بلدان الغرب، لا توجد دولة نجحت في تأمين تلك الخدمات في كل بلادها. وإذا تحدثنا بالنِسب، فإن نصف الدول لم تحقِّق نصف الخدمات. وما توفر من خدمات حكومية فهي تباع بيعًا للمواطن بأجور يومية أو قوائم شهرية وسنوية. ناهيك عن أنظمة الضرائب التي يدفعها الأفراد لتأمين رواتب منتسبي الدولة وتغطية تكاليف الأعمال الحكومية.

لا يوجد اليوم تحديدًا ، مواطن راضٍ عن دولته وحكومته. ولم تنجح حكومة في تأمين معدل لائق للحياة البشرية في بلادها. والهجرة من بلدان آسيا وأفريقيا أكبر دليل على فشل حكومات تلك البلدان وسوء مستويات أدائها. بل أن كثيرًا من البلدان عادت اليوم لنوع من الحياة الإقطاعية أو الارستقراطية التي تؤمِّن أفضل مستويات الحياة لحاشية الحكومة والفئات الغنية من مالكي الأراضي ورؤوس الأموال التجارية، بينما تعيش الأغلبية الساحقة تحت معدل الفقر.

ما يمكن للفرد أن يعمله في ظل حكومة برجوازية فاسدة أو عاجزة عن تأمين متطلبات البلاد والسكان؟...

المشكلة تتفاقم وتتعقد مستوياتها، حين يجد الفرد نفسه في مجتمع متخلف، تتحكم به تقاليد دينية وأعراف اجتماعية بالية تمنعه من التعبير عن ذاته والشعور بحريته وإرادته الشخصية. فالفرد في الشرق محاصر بين سندان المجتمع ومطرقة الحكومة.

وإذا تصور -نظريًا- بوجود أمل للإصلاح السياسي من خلال الانخراط في حزب سياسي معين، فإن بنية التقاليد والأعراف الاجتماعية الضاغطة على الحريات الشخصية، تحرم الأجيال الطالعة من امتلاك حياة منطلقة تناسب العصر والزمن، وتشكِّل كابوسًا جاثمًا على حياة الشرق، يدفعها باضطراد نحو الهجرة، والبحث عن هواء وجغرافيا ولغات جديدة.